المحاضرة الأولى: مفهوم الثقافة بين الغربيين والعرب

. مفهوم الثقافة في اللغة والاصطلاح:

يندرج تحت مصطلح الثقافة مفهوم يتسع لمجمولات دلالية عديدة، كما أنه يقوم على تباين واختلاف بين الأمم والشعوب في مجموع هذه المحمولات الدلالية التي يحتويها، خاصة وأنه يعبر عن مجموع أو منظومة من المفاهيم والأفكار والمكونات التي تجتمع كلها تحت مظلته، وحتى نستطيع أن نمتلك قدرا كافيا من الإحاطة بمفهومه العام يحسن بنا أن نتعرض له من خلال استظهار دلالاته عند الغربيين ثم العرب.

1.1. مفهوم الثقافة في اللغات الأجنبية:

اكتسبت كلمة الثقافة مفهومها الأساس داخل اللغة الفرنسية أولا، ثم انتشرت بعد ذلك الى لعغات مجاورة كالإنجليزية والألمانية، فقد ظهرت كلمة ثقافة منحدرة من كلمة (cultura) اللاتينية التي تتعلق بحقل الفلاحة والرعي وتعني مجموع الطرائق المتخذة في عمليات رعاية الزرع والماشية ، في أواخر القرن الثالث عشر، وفي بداية القرن السادس عشر أصبحت تدل على فعل فلاحة الأرض، و لم تستمد معناها المجازي في الإشارة إلى تطوير كفاءة ما والاشتغال بإنمائها إلا في منتصف القرن السادس عشر ومع ذلك لم يغد هذا المعنى دارجا و لم يحز على الاعتراف الأكاديمي به حتى القرن السابع عشر، إذ لم يدرج ضمن قواميس تلك الفترة [1][i].

في مرحلة تالية، أصبحت كلمة(culture) ثقافة في اللغة الفرنسية تستخدم بمعنى الغرس والإنماء والمعالجة والمراقبة والاحترام والعبادة. ومجازا بمعنى التربية والإنماء والتكميل والاغناء، وكذلك جملة المعارف المتحصلة من قبل الفكر[2][ii]، أما في اللغة الانجليزية فهي كما اشرنا سابقا مشتقة من(culture) الفرنسية وهي من ثم مشتقة من (culturo) اللاتينية بمعنى الغرس والزراعة والإنماء والخضوع والمراقبة (tending) وقد وردت أيضا بمعنى (worship) أي العبادة والخضوع والاحترام وهي أيضا كنظيرتها الفرنسية تكاملت وتطورت خلال القرون.[3][iii] ونجد كلمة

(culturo) في اللغة الروسية بمعنى الشعور الفكري، والظرف الروحي والتصورات الطبيعية لدى الإنسان، وهي غالبا في هذه اللغة، غير ذات صلة بالأرض والزراعة إلا فيما يخص تربية الزهور ونباتات الزينة [4][iv] أي الجانب التزييني، وفي اللغة الايطالية توجهنا(culturo) التي تشبه جذرها اللاتيني – بإفادتها مجموعة المعارف والأحوال والمواهب والميول المادية والاجتماعية للإنسان [5][v]، أما في اللغة الألمانية (kultur) فهي مجموعة من مناهج وطرائق الحياة لدى الشعوب وقيمهم، وفي الماضي كانت الأبعاد الطبيعية لهذه المفردة أوسع بينما تحولت في الألمانية اليوم إلى مفردة ذات أبعاد اجتماعية أوضح [6][vi] ولكنها في الألمانية اختلفت بعض الشيء خلال القرن التاسع عشر على وقع تأثير القومية هناك، فارتبطت أكثر بمفهوم الأمة، إذ غدت الثقافة متصلة بروح الشعب وأخذت تبدو على أنها جملة من المنجزات الفنية والفكرية والأخلاقية التي تكون تراث امة [7][vii] .

2.1. مفهوم الثقافة في اصطلاحات المفكرين الغربيين:

إذا ما اتجهنا لرصد مفهوم الثقافة الحديث في كتابات بعض الغربيين سنجد أن مفهومها يختلف باختلاف ارتباطات الباحثين الفكرية ومجالات تخصصهم العلمية، ومن أشهر تلك التعريفات تعريف عالم الانثروبولوجيا البريطاني ادوارد بارنات تايلور (1832-1917) الذي يعد واضع أول تعريف مفهومي للثقافة حيث يعرفها بأنها " الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع"[8][viii] بينما يحدد رايموند وليامز(1941-1988) للثقافة ثلاثة معان حديثة متداخلة الدلالة بعضها في بعض وتستخدم حاليا أولها الثقافة كعملية تنمية فكرية وروحية وجمالية عامة، وثانيها كونها أسلوب حياة لشعب أو لحقبة أو لجماعة بشرية ما أي سلوك مجتمع معين، وثالثها أعمال وممارسات النشاط الفكري ولاسيما النشاط الفني[9][ix] .وهو بعد ذلك كما يصفها وصفا مكثفا بقوله : " كل طريقة للحياة يعيشها الناس "[10][x] وقريب من هذا التعريف تعريف روبرت ستيفان إذ يذهب إلى أن الثقافة هي " أسلوب وطريقة حياة مجتمع من المجتمعات "[11][xi] .

2. مفهوم الثقافة في المعاجم العربية:

نقلت معاجمنا العربية هذه التعريفات والمعاني الحديثة لكلمة ثقافة فكلمة (culture) تحمل دلالات رياضة الملكات البشرية وترقية العقل والأخلاق وتنمية الذوق في الأدب والفنون، فضلا عن أنها تمثل السمات المميزة لمراحل التقدم في المجتمع أو الحضارة [12][xii]. ومن النقاد من يفرق بين مجالات الثقافة فللثقافة في تحديدها المفهومي ارتباطات أهمها الدين والسياسة والتاريخ والفلسفة، وهذا ما عبر عنه تيري ايغلتون بقوله:" وإذا ما كانت كلمة (ثقافة) نصا تاريخيا وفلسفيا فهي أيضا محل صراع سياسي "[13][xiii] وهو ما يراه ادوارد سعيد أيضا، إذ يجد الثقافة مسرحاً من نمط ما تشتبك عليه قضايا سياسية وعقائدية متعددة[14][xiv] وداخل كل ثقافة تولد ثقافة مغايرة ومضادة، وهو ما يطلق عليه (الثقافة المضادة) (counter-culture) او (anticulture) وهو مصطلح أطلق حديثا على أية ثقافة تحل محل الثقافة السائدة، فهي رد فعل طبيعي للمهمشين [15][xv] . وهي في معجم اريان بور مرتبطة بالشرائح المعارضة لأسلوب حياة ومعايير مجتمع ما، أضف إلى ذلك أن مفهومها عند علماء الاجتماع الأمريكيين ينصرف إلى معارضة التقنيات المتطورة وأسلوب الحياة السائد في مجتمع صناعي ما وبالتالي أصبحت تعني أي تعبير ثقافي يحاول أن يحل محل الثقافة التقليدية[16][xvi] إذن فالثقافة المضادة هي سلوك تغييري يرتبط بالأدب والفن كارتباطه بالسياسة والاقتصاد والمعتقدات.

وقد ارتبطت كلمة ثقافة بكلمة أخرى قريبة منها، إذ هي تنتمي إلى الحقل الدلالي نفسه وهي كلمة (حضارة) وان كانت هذه الأخيرة تختلف عن الثقافة كونها تمثل التقدم الجماعي والثقافة تمثل التقدم الفردي أكثر وكون الثقافة أكثر عمقا لأنها ارتبطت بالجانب الروحي والفكري، والحضارة أكثر سطحية لأنها ارتبطت بالتقدم الصناعي المتولد من العقلانية والمتصل بالتطور الاقتصادي والتقني . لذا هي أكثر ارتباطا بالمدن والعمران كما يحيل أصلها الاشتقاقي بينما الثقافة أصلها المفهومي منطبق على المجتمعات الإنسانية كافة بدائييها ومتمدنها لذا هي اعم واشمل[17][xvii] .

ومن هذا التتبع لكلمة ثقافة في دلالتها ومفاهيمها الاصطلاحية نستطيع أن نستوحي بعضا من الأمور الجوهرية القارة، فيما يأتي:

1. إن الثقافة مفهوم عام له وجوده المتجذر في المجتمعات الإنسانية كافة .

2. إن الثقافة تعنى بنشاط الإنسان ونتاجاته معنويها وماديها .

3. إن الثقافة هي كل مكون من أجزاء وبعبارة أخرى هي مجموع لنشاطات فردية، لذا لا يمكنها الإلغاء أو التهميش وهذا بدوره يولد سمة أخرى هي

4. إن الثقافة تتسم بخصوصية الحالة الفردية عمومية انطباقها على نمط إنساني أرحب.

5. إن للثقافة وجودا آنيا وتراثيا ومستقبليا .

6. إن للثقافة منابع تمدها أو تستمد منها هي الدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ .

7. إن الثقافة هي قيم وأعراف وتقاليد وسلوك ونشاط يسود في مجتمع ما، وهذه القيم والأعراف متبدلة ومتغيرة وفيها ما هو جيد وجميل وما هو غير ذلك وعكسه .